(٢١)

دوام الإنسان
وتجديد العنوان
في عباد الرحمن

حديث الجمعة

١٢ ذو الحجة ١٣٨٠ هـ - ٢٦ مايو ١٩٦١ م

أستغفر الله، وأعوذ بالله، وأستعين بالله، وأبدأ باسم الله.. ذكر الله.. صبغة الله.. لا إله إلا الله.

كلنا يردد حديث رسول الله.. (الظاهر مرآة الباطن)[١]، وكلنا يردد قول كتاب الله {وخلقناكم أزواجا}[٢] وكلنا يستمع ليستجيب {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[٣] {ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير}[٤] {ويضرب الله الأمثال للناس}[٥]، ويبرز الله للناس في أنفسهم وفي الآفاق آياته لعلهم يتذكرون، لعلهم يتأملون، لعلهم يعقلون، لعلهم يبصرون، لعلهم يؤمنون، لعلهم يتحققون.

أبرز الله لنا بالإسلام رسالته، قامت على ما قام به رجلان توحدا فكانا رجلا وصلهما من الغيب - غيب الإنسان - حق كانا له وجه، فكان الظاهر بالرجلين، عين الباطن للوجه في الوجهين، وكان الظاهر بأمر رسول الله وظله هو عنوان للباطن من أمر الله وامتداده.. جعل الله طاعته في طاعة رسوله ودوامه، وجعل أمره في أمر رسوله وقيامه، {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}[٦] حكم دائم القيام في دوام الإسلام.

لقد كان برب محمد ورسوله إلى محمد، ما كان في محمد وفي رسوله لأمته من عليّ يوم قال: (أنا مدينة العلم وعَلِيٌّ بابها)[٧]، ويوم عرَّف: (من كنت مولاه فعَلِيٌّ مولاه)[٨] ويوم آخى فقال له: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وإن كان لا نبي بعدي)[٩].. (لقد خلفت الله عليكم)[١٠].

إني أُعرفكم، وأبشركم، وأحذركم، وأعدكم، وأنقل إليكم.. تأملوه يوم قال لي: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد}[١١]، جعل لي الخلد في سجودي وقيامي، {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ}[١٢].

كان علينا أن نعرف محمدا ومن آخى، ومحمدا ومن ولد، ومحمدا ومن معه توحَّد، ومحمدا ومن به آمن، ومحمدا ومن في نفسه له جدَّد، ومحمدا ومن في نفسه بُعث.. كل هذا لم يكن موضعا لدراسة لا من أصحاب محمد ولا من أتباعهم على دينه.. اللهم إلا النذر اليسير، والعد القليل ممن نبذهم الناس، وأسموهم قوما، وما وصلوهم وما في أنفسهم نشروهم، وما في دنياهم تابعوهم، وما في أمرهم شفَّعوهم، ولا من ربهم لأنفسهم طلبوهم فأوجدوهم فوجدوهم فتواجدوهم.

من كان جبريل؟ من كان رب جبريل؟ من كان مرسل جبريل؟ ما كان جبريل إلا الأقدم من إنسانية محمد من نفسه في عصره، وما كان مرسله إلا الأقدم منه من الإنسان من أصول هذه الإنسانية تمشي على الأرض.. وما كان محمد وعَليّ إلا مظهرين لهذين الحقين القديمين من الإنسانية يمشيان ويدبان على الأرض، سمهما ما شئت.. نفسان تزاوجتا أو نفس ولدت نفسا، أو روح ولدت روحا، أو نور انشق عنه نور، أو آدم تواجد منه آدم، أو آدمان قديمان تلاقيا وتواجدا وبعثا. لا عبرة بالألفاظ ولكن العبرة بالمعاني ينشدها الإنسان ليعرف عن حقيقة الإنسان، بما أودع قديم الإنسان في جديده من العقل والوعي.

فليس دينا أي قول وأي تعليم لا يدل الناس على حقيقتهم بكشف معنى الناس، من رب الناس ملك الناس، إله الناس.. أين رب الناس إذا لم يكن الناس؟ وكيف ملك الناس إذا لم يكن الناس؟ وهل هناك معنى لإله الناس إن لم يتواجد الناس؟ الناس من رب الناس وليس رب الناس من الناس.. الناس لملك الناس وليس ملك الناس للناس.. الناس من إله الناس وليس إله الناس من الناس، ولكن الناس بإيمانهم برب الناس وتوحيدهم لرب الناس، أصبحوا رب الناس. وإن الناس بطاعتهم لملك الناس، ورضائهم عن ملك الناس، أصبحوا في ملك الناس ملك الناس. ولكن الناس في إكبارهم لإله الناس، وطلبهم لإله الناس، ومرتقاهم في إله الناس، وحبهم لإله الناس، وافتقارهم لإله الناس، أصبحوا علما على إله الناس.

إن الناس في الحقيقة من الناس، خليقة هي مظهر لحقيقة. وإن حقيقة الناس، من حقائق الناس، حقيقة هي مظهر لحقيقة. إن الناس إذا ارتقوا وهم الخليقة، فطلبوا ربهم من إلههم، وطلبوا وجه الله في معاني ربهم، من قديم الناس بحق الله، حقَّقهم الله وسرى فيهم نور الله، لمس قلوبهم، وغفر ذنوبهم، وستر عيوبهم، وسد فاقتهم، وأشبع رغبتهم، وآمن رجفتهم، وأزال عنهم ضيقتهم وعلتهم.

هذا جاءنا به الإسلام مجسدا في محمد، أسلم لغيبه من أمر ربه، مَظهرا له وظاهر حقه، وفي عليّ أسلم لرسوله، أسلم لوجه مولاه، أسلم لمن أحب، أسلم لمن خالل، أسلم لمن ودَّ، فكان منه الجدَّ القديم لجديده في أحسن تقويم، وكان محمد لهذا الجديد منه قديمه.. فتكشف بهما للناس كيف يكون الدوام

للإنسان، إذا ما كان عبدا لله، لا ينقطع جديده، ولا يتوقف في الله مزيده، ولا ينفك عن الجديد قديمه، فيتقادم القديم بأقدم وأقدم، ويتجدد الجديد بأجدد وأجدد. ويبعث القديم خلال القائم، وما كان القائم إلا جديده، بأجد من جديد، وما كان المبعوث منه في الحقيقة إلا قديمه.. فتعالى جد الرب من البدء عن الصاحبة والولد.. وما كان من تعالى إلا الإنسان في حقيته، وقد فارق معناه من خلقيته.. وما كان الدوام لله في ظهوره إلا في دوام بعث القديم من الإنسان بحقه خلال القائم من الإنسان جديد حقه في جديد الإنسان بحقه، لا تقطعه الأزمان وهو يقطع الأزمان.. لا تغيبه الدهور وهو يفنى الدهور بدورته الخالدة.. عِلْم الساعة وعَلَمها.. وإنسان القيامة وقيامها، هو عبد الرحمن.. هو عبد الله يمشي على الأرض هوْنا وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما.

الساعة إلى ربك منتهاها - وها أنت إليه انتهيت -. ففيمَ يتساءلون؟ هل طلبوا ربهم معك فلم يجدوه؟ هل تابعوك فلم يصلوه؟ هل استغفرت لهم فلم يجدوا الله توابا رحيما؟ ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (مبعوثا) بين الجوانح نورا لله أُنزل معك، ونور على نور أُنزل عليك، بُعثت فيهم الحق يقوم بينهم.. ألم ترى أنا بك نأتي الأرض ننقصها من أطرافها للذين اتبعوا سبيلك، وتابعوا طريقك مستقيما طريقا لي، فتابعوك إليَّ ودعوا بدعوتك عترة لكتابي، وقياما لك تتلوه في الناس على مكث، تقوم وتتقلب في الساجدين.. لم نجعل لبشر من قبلك الخلد.. كلمة دائمة لنا وكلمات دائمة منك.. روحنا تتمثل بك في الناس بشرا سويا، جماع الكلمات، وجماع الحقائق، وجماع الآيات، تسري بنورنا في الناس، نهدي به من نشاء. القيامة في قيامك في القلوب، والساعة في استغفارك لهم من الذنوب، والرحمة يوم تمتد إليهم يدك فتخرجهم مما هم فيه من الكروب. الجنة دارك، والحقيقة معرفتك ومزارك، والحضرة بيتك، والنجاة جوارك، والخلاص متابعتك. أولى بالمؤمنين أنت من أنفسهم، وأزواجك أمهاتهم.. فقد حملت عني هذا الوصف وتجردت منه، لا صاحبة لي ولا ولد، ولكن عباد مكرمون، أنت منهم وأنت أحدهم، وأنت من قدمتك، وما أرسلتك إلا رحمة للعالمين، راعيت فيك الخلق العظيم في قديمك وجديدك فخاطب الناس على قدر عقولهم، ولا تمنع عنهم ما أعطيتك، فكل ما أعطيتك إنما هو لهم، أما ما هو لك فهو عندي لك.. لا تمد عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم.. امنن أو أمسك بغير حساب عليك يا صاحب الخلق العظيم.. يا رحمتي للعالمين.. يا عبدي الأمين.. يا روحي الأمين.. يا من أنت عندي في كل أمر مكين، واخفض جناحك للمؤمنين رحمة بهم منك، ورحمة بهم مني، وإن ظهر خفض جناحك وتواضعك عند الحمقى مظهرا من مظاهر الذل، فإنه مظهر من مظاهر القدرة.. فالعفو عند المقدرة شيمة أهل القدرة، والغضب والاعتزاز بالنفس شيمة أهل الضعف. إن الشيطان كان ضعيفا، فاعتزَّ بوهْم العزة على من رآه أضعف منه...

فمكنا للضعيف في الأرض واجتثثنا الشجرة الخبيثة من عليها، وأبقينا الضعيف كلمة طيبة وشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.. وما أُكلها تأتيها في كل حين إلا رد خير الأعمال إليها.. وما الشجرة إلا الناس.. وما الثمرة إلا كلمات الله من بينهم، تتحدث إليهم رسلا من أنفسهم.. يعلمون منهم أن الله من ورائهم محيط، وأن الله قائم على كل نفس بما كسبت، عطاء غير مجذوذ، وكسبا غير ممنون.. أحبوا الله فأحبهم، ورضوا الله فرضيهم، وقنعوا بالله وجوها له، فرضيهم الله عبادا له.

أما أولئك الذين لم يرتضوا الله، ولم يكتفوا بالله ليكونوه، وطلبوا أن يسودوا الله في الناس ما عرفوه، وأن يُعبِّدوا الله لهم في تعبيد الناس لهم ما وحدوه، وأن ينشروا في الناس عِلْما ما في الله من الله قرأوه، ولا في كتاب لله بأيمانهم أخذوه، ولكنه من أنفسهم كتبوه وإلى الله نسبوه.. طلبوا به الدنيا وفقدوا به الدين، طلبوا به المال وفقدوا به النور، طلبوا به الجاه وما جاه هذه الدنيا إلا كسب الضعة في الآخرة وفي الله.. {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون}[١٣]، ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وضل سعيهم في الآخرة، فقد صدوا عن سبيل الله بأعمالهم ممسوخين، ولم يطلبوا الله فيكونوا فيه ممسوحين.. ذكَّروا الله ولم يروه، وهو لهم مشهود، وعلَّموا الله غيبا وهو بهم موجود.. غيبوا نعمة الله، وغيبوا عذاب أنفسهم بقطيعتهم عن الله، وغيبوا القطيعة عن حياتهم فما وُصلوا، وغيبوا الحياة عن وجودهم فما وُجدوا.. باسم الله وباسم الدين شياطين أنفسهم، وشياطين الناس يوحي بعضهم لبعض زخرف القول غرورا بأنفسهم، وزورا من مثاليتهم بأقوالهم وأفعالهم...

هذا ما آل إليه حال مجتمعنا وما ورثنا من سبق مآلنا...

وما كان محمد وعَلِيٌّ إلا مثالية لنا، وما كان الوحي ومحمد إلا معنانا من ظاهرنا بمحمد، وباطننا بالروح، وباطننا بالنور، وباطننا بالناموس، وباطننا بالرباط من جبريل، وباطننا بالإيحاء والوحي. وما كان مرسل جبريل مع محمد إلا ما كان محمد مع عليّ بفاطمة.. ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا، فيوحي (هذا الرسول) بإذنه ما يشاء، بما أودع الله فيه من قدرته، وبما هيأ الله له من نوره ومن سره ومن حقه ومن حقيقته.. ومن هذا قال محمد فاطمة ابنتي روحي من أغضبها أغضبني ومن أغضبني أغضب الله.. ومن هذا عرَّف محمد أن لكل إنسان ساعة، وأن لكل إنسان قيامة، وأن لكل إنسان برزخ، وأن لكل إنسان حق قائم عليه بما كسب في معارج الله.. في ناموس الوجود اللانهائي في قدمه، اللانهائي.. في جدته، اللانهائي.. في سعته، اللانهائي زمنا

ومكانا.. وبذلك قال (كلكم راعٍ وكل مسئول عن رعيته)[١٤]، وقال (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[١٥].

هذا هو دين محمد فهل دِنَّاه؟ وهذا هو سبيل محمد فهل سلكناه؟ وهذا هو حوض محمد فهل وردناه؟ وهذا هو نور محمد فهل في أنفسنا طلبناه فسرى فأسريناه؟

أين نحن من كتاب محمد، ورسالة محمد، وفطرة محمد، وحقيقة محمد؟ فقد باعدناها وباعدناها وباعدناها، فجددنا جاهلية ما قبلها، وجاهلية ما قبلها، وجاهلية ما قبلها.. نسري ونمشي في ظلمات وندخل بها في ظلمات. فهل يعطي الظلام إلا ظلاما؟ وهل يتوالد الظلام إلا من ظلام؟ وهل يعطي النور إلا نورا؟ وهل يتوالد النور إلا من نور؟ لا تلد الحية إلا حوية، ولا يلد الإنسان إلا الإنسان، ولا يتكاثر الشيطان إلا بشيطان، وإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم.. كما يجري الرحمن منه مجرى الروح.

أُعبد الله كأنك تراه، فإن وحدته كأن لم تكن فإنك به تراه. فإن كنت في ظلام نفسك لا تراه.. ألا تعلم أنه يراك؟ عامله على أنه يراك إن لم تستطع معاملته على أنك تراه.. هل عاملته على أنه يراك يعلم سرك علمه بنجواك؟ هل عبدناه معنا؟ هل صلينا ووصلنا وأقمنا الصلة بمن هو معنا، من هو في حركتنا وفي سمعنا وبصرنا يرانا ويسمعنا؟ ولكننا نعمل على أنه لا يرانا ولا يسمعنا، والحساب ليوم الحساب، والعقاب ليوم العقاب.. ونحن نعيش في عفو وحساب، ونعيش في جزاء وعقاب.. أعمالنا ترد إلينا، وكل فعل محسوب علينا.. خطرات القلب.. نظرات العين.. خشيته وخوفه.. حنينه وحبه.. سيرنا في مكان ومن مكان وإلى مكان محسوب علينا، يدنا تمتد فتعمل أو تتكمش فتقصر عن العمل محسوب علينا. من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

إن رآه عمله فعاش في قديمه يوم قيامته بغيبه من معنى موته فهذه جهنمه، يحيا في ضمير يستيقظ فيحاسب ويسترجع، فيعد ويناقش ولا قيام ولا جديد.. أو يبعث في مأمول رجاه، وخيال تمناه، في صورة من وجود ارتآه، وحرمه في قيامه وفي معناه، فيحيا في هذا الخيال يوجده من نفسه لنفسه بنفسه، وهذه هي الجنة رسمت له يعبدها لا يعبد من خلقه لنفسه، ولا يعبد من أوجده ولكنه يعبد ما وجد من عمله ومن صنعه ومن خياله ومن إدراكه ومن فهمه ومن إرادته.. حتى يتساءل يوم يستيقظ عن ربه فيخرج من وهم ويرى الحياة على ما هي الحياة.. يرى صمدانية الله فيما كان فيه وفيما كان مما خرج منه، وفيما يكونه يوم يكون في الله على ما هو الله.

هذا هو الدين إن دناه. وهذا هو الطلب إن عقلناه. وهذا هو الماء إن وردناه. وهذا هو المعراج إن صعدناه. وهذا هو الحق إن تواجدناه.. أما لهذا الليل من آخر؟ إن موعدنا الصبح.. وما الصبح عنا ببعيد.. فلِمَ نترك أنفسنا لسير الزمان، ولا نقطع الزمان؟ فلنسر في الأرض فإن كنا اليوم.. فإن كنا الساعة.. فإن كنا في هذا المكان في ليل فقد سبقنا الصباح إلى مكان آخر، فلنسر إليه، فإن دخلنا في الصباح فلنمشي معه ولا نخرج منه.. إن الصباح.. إن الفجر يدور حول الأرض وتدور الأرض فيه.. وإن الليل يغشي الأرض وتدور الأرض فيه.. فلنتأمل ما يظهر الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، لعله يتبين لنا أنه الحق، فنؤمن به ونرتضيه. هدانا الله وإياكم سواء السبيل.

اللهم إنك أعلم بنا منا.. فأمرك علينا، وإليك وكلنا أمرنا، فاهدنا مناسكنا، وقوم سبيلنا، وأيقظ ضمائرنا، وأنر عقولنا، وأحي قلوبنا، وجدد مشيئتنا، وقوم جوارحنا، وخذ بنواصينا إلى الخير.. فعرفنا بعبدك وابن عبدك وأب عبدك.. عبدك ورسولك من أخرجته لنا رحمة وللناس، ومن جعلته لنا سراجا ولسائر الناس.. من جعلته سراجا في قديمه، وسراجا في حاضره، وسراجا في مستديمه.. أخرجتنا به من الظلمات إلى النور، ومن ظلم أنفسنا إلى واسع رحمتك. اللهم أقمنا فيه.. وأقمه بنا.. وأشهدنا له.. وأشهده لنا.. وأشهده بنا. اللهم إنا ذكرناك واحدا.. وعرفناك واحدا.. وآمناك واحدا.. وأقمناك في أنفسنا واحدا.. فكن لنا عبادا لك.. كن لنا معك واحدا لا تعدد لك ولا شرك بنا.

اللهم فيك فأفننا.. اللهم بك فأبقنا.. اللهم بكتابك فعلِّمنا، وكتابك أقرئنا وبه قومنا.. اللهم بك على ما تعلم. اللهم اجعلنا منك على ما نرجو وعلى ما نتعلم.

اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا، وأصلح لنا حكامنا، وأصلحنا للصالح من حكامنا، وانشر السلام على أرضنا، والسلم في نفوسنا، وأنزل علينا سكينتك، واجعل صلاة نبيك سكنا لنا. لا إله غيرك ولا معبود سواك.

أضواء على الطريق

من قول لباب مدينة العلم، والأذن الواعية، وذو القرنين، والابن للآب الطالب، والأب الثاني (عبد الله السيد الإمام عليّ):

- دواؤك فيك وما تشعر، وداؤك منك وما تبصر، وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر.

من هدي القرآن:

- {فارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير}[١٦].
- {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[١٧].
- {كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}[١٨].
- {ما كذب الفؤاد ما رأى}[١٩].
- {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس}[٢٠].

من علوم القرآن:

- بمعنى أن الناس في تطويرهم لأكبر هم أصول لخلق الأرض وخلق السموات

مصادر التوثيق والتحقيق

١ من مقولة من خطبة للإمام عليّ ـ كرم الله وجهه ـ:"...اعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه...". بحار الأنوار. المكتبة الشيعية.

٢ سورة النبأ - ٨

٣ سورة الذاريات - ٢١

٤ سورة الملك - ٤

٥ سورة النور - ٣٥ , سورة إبراهيم - ٢٥

٦ سورة النساء - ٦٥

٧ حديث شريف: "أنا مدينةُ العلمِ، وعليٌّ بابُها، فمَنْ أرادَ العلمَ فليأتِهِ منْ بابِهِ". المحدث: السيوطي. المصدر: الجامع الصغير، أخرجه الطبراني، وابن عدي، والحاكم..

٨ حديث شريف، يوم غدير خم، بعد حجة الوداع، حيث أخذ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، بيدِ عليٍّ رضي الله عنه، فقال ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم قالوا بلى قال ألستُ أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه قالوا بلى قال فهذا وليُّ من أنا مولاه اللَّهمَّ والِ من والاهُ اللهمَّ عادِ من عاداهُ. صحيح ابن ماجه، أخرجه ابن ماجه وأحمد.

٩ حديث شريف أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال لعليٍّ: أنت مِنِّي بمَنزلَةِ هارونَ مِن موسى، إلا أنَّه ليس بَعدي نَبيٌّ". صحيح مسلم، وصحيح البخاري.

١٠ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

١١ سورة الأنبياء - ٣٤

١٢ سورة البقرة - ١٨٦

١٣ سورة البقرة - ١١:١٢

١٤ من الحديث الشريف: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته". أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، وأحمد، والترمذي.

١٥ حديث شريف. أخرجه الترمذي في صحيحه، والدارمي

١٦ سورة الملك - ٤

١٧ سورة الذاريات - ٢١

١٨ سورة ق - ٢٢

١٩ سورة النجم - ١١

٢٠ سورة غافر - ٥٧